القصص

صور من هوميروس

٣ ـ حروب طَرْوَادَة

إلى أسبارطه !

للأستاذ دريني خشبة

ـ « سمعت يا أبي قصة أختك المذبة « هسيونيه » إذ أنا أرعى الشاء والبهم ، فكان قلبي يتفطر أسى ، كيف يسكت شعب عظيم كشعب طروادة على إهانة نصيبه في الصميم من شرفه ، وعار ليس أيسر من دفعه ، لكنه يغضي عليه ، ويتام عنه ، كأن العزة القومية عند أهل هذا البلد ليست إلا أسطورة قديمة ، أو حلماً لا يدور لهم بخلد ! ؟ »

ـ « حسبك يا باريس ! حسبك يا بني ! إنها محنة كتبت على طروادة ، ، صنعها جدك بيديه ! »

ـ « جدي ؟ »

ـ « أجل ! جدك . . . أبي . . . أبي لا يوميدون ! هو الذي نكث بعهده لبطل الأبطال هرقل . . . الرجل العظيم الذي أنقذ هسيونيه من براثن هذا الوحش البحري الهائل . . . الوحش الذي فتك بمذاري طروادة . . . لقد أعلن أبي أن من يقتل هذا التنين فانه يتزوج هسيونيه . ولما قتله هرقل العظيم . . .

ـ « رفض وأبى أن يزوجها منه ! »

ـ « هو ذاك ! »

ـ « لم أسمع بهذا من قبل . . . ولكن كيف سمحتم لهرقل وملئه أن يستبيحوا طروادة ويذهبوا ببعض الأعزاء من أفراد البيت الملكي ! »

ـ « كنت طفلاً . . . وقد كنت بعض هذا السبي . . . ثم من كان يستطيع دفع هرقل ، أقوى أبناء زيوس ، وصاحب المجازفات الخرافية ! من كان يستطيع حماية طروادة منه ، بعد أن نكث الملك بوعده ؟

أنت كنت بعض السبي ؟ انت يا أبي ؟

ـ « أجل يا باريس ! وقضيت في أيدي أعدائنا الشرفاء أجل حقبة من شبابي ! لله كم كانوا كرماء حقاً ؟ . . . »

ـ « وكيف عدت إلى طروادة إذن ؟ »

ـ « مات أبي بعد حياة مفعمة بالمتاعب ، ولم يكن له ولي عهد غيري ، فتوجه الطرواديون إلى الأعداء يطالبونني ملكاً لهم ، بأي ثمن . . . ولكن أعداءنا كانوا أكرم من أن يبتزقوا الملوك أو يبيعوا الأمراء . . . لقد أعادوني معززاً مكرماً إلى وطني ، بعد إذ أخمد خصومتهم موت هرقل . . . »

ـ « ولم لم تعد عمتي هسيونيه يا أبتاه ؟ »

ـ « لقد تزوجها تيلامون يا بني ، وأحسبها الآن أبا »

ـ « ذلك أدعى لعودتها . . . إنها لا شك تتعذب في دار غربتها . . . مسكينة ! ! إن حدائق الخلد لا تجدي نفعاً إذا كانت سجناً لأحدنا ! »

ـ « هذا حق يا بني . . . ومثله القفص من ذهب يحبس فيه البلبل المحزون ! »

ـ « أنا حزين يا أبتاه . . . لا بد أن تعود عمتي . . . أفتأذن لي في الابحار إلى هيلاس [1] ؟ إذا أذنت ، فلن أعود إلا بها

* * *

الآلهة لا تكذب !

هكذا قالت ثينوس ! وإذا كانت الآلهة لا تكذب ، فلن يكذب أبوللو ! لابد أن تصدق النبوءة القديمة ؛ لابد أن يبحر باريس إلى هيلاس ليجر الخراب على طروادة ، وليخيم الموت في دارتها جميعاً . . .

(١) اسم بلاد اليونان قديما

الآلهة لا تكذب !

لقد أبحر إلى أسبارطة في يوم عاصف ؛ أسود من جبين الموت ! وأبرد من بطون القبور ! ولقد كان أسطوله العجب يرقص على نواصي الموج ، كما يرقص الطائر المذبوح في قبضة الفناء . . .

هيلين (١)

ثمرة الحب الأولمبي الساحر ... ابنة زيوس ، الغزل ، زير النساء ؛ من ليدا الفاتنة ، التي حوّلها حبيبها كبير الآلهة ، وسيد أرباب الأولمب ؛ إلى بجعة بيضاء تتهادى في مرايا المستنقعات والغدران ، ليسهل عليه لقاؤها دون عزول . . . أو رقيب ! ولقد ولدت له هذه الطفلة التي كانت كقطرة المداد يمهر بها إعلان الحرب !

شبت هيلين وشبت في أثرها شياطين الفتنة ؛ وكبرت ، وكثرت تحت قدميها مصارع العشاق !

لقد كان جمالها أسطورةً مصورةً في السحب ، موشاةً بذهب الأصيل ! كانت نظراتها تغتذى بأرواح المحبين في غير شرَه ، وترتوى بماء حياتهم في غير نهم . . . وإن كان محبوها يحصون بالآلاف . . . !

وهي لم تعمد يوماً إلى قتل هذه الأرواح الظلومة ؛ ولم يكن ذنبها كذلك أن تنظر فتصرع ، أو تنفس فتُصمى ... ولكن القتل كان يذهب بأرواح عاشقيها عفواً كلما نظرت هنا أو هنا ... وذاك هو القتل البريء ...!

وكان لها فم شتيتٌ حلو ، أودعت فيه السماء أسرارها ، وصبغته عرائس[٢] الفنون بحمرة القبل ؛ فهو دائماً يبتسم ، وكل ابتسامة منه تُحيي وتُميت !

وخدّاها الأسيلان كذلك ! لقد كانت لهما نومة ولمة ، و « نونة »[٣] خلابة ، هي ملتقى الفتنة بين الخد والفم والعين والأنف !!

ثم عنقها الطويل البلّوري الشفاف ، وجيدها المتلئ الخصب ! وجسدها الرخص المرمري ! وساقاها الملتفتان ، يختلط في بشرتهما بياض الندف بحمرة الورد !

هذه هي هيلين !

فاذا فتّرتْ العينين ؛ وأرخيْت الأهداب الكحيلة السوداء ، ذاتَ الوطف ؛ وأرسلت نظراتك المذهولة ترف بالخد والجيد ، والفم النضيد ، فترتد إلى فؤادك بأحمال الحب ، وأثقال الهوى ... رأيت التمثال المعبود الذي خلب ألباب أمراء هيلاس ، وأجّج قلوبهم بالفتنة ، وقرّح أجفانهم بالسهاد !

* * *

لم تنشأ هيلين مع ذاك في حجور الآلهة ، إذ تزوجت أمها ، بعد أن هجرها زيوس ، من تنداريوس ، أحد أمراء هيلاس ، فترعرعت الطفلة في مهاد النعمة ، وسعدت بالهناءة والعيش المخفرج حتى كانت هيلين التي رأيت ! ؟

وقد تقدم إلى خطبتها كثير من سادة الأغريق ونبلائهم ، ولكن أحداً منهم لم تقبله هيلين بعلاً لها ... لا لعيب فيهم ... ولكن القلب !!

أجل ، لم يكن يتفتح قلب هيلين الأولمبية الرائعة ، إلا لكل جميل رائع ! ولما لم يكن في كل من تقدموا لخطبتها من هو سليل الآلهة مثلها ، فقد رفضتهم جميعاً ، وعلة ذاك هذا الدم المتكبر الذي يتدفق في عروقها ، وذلك الجمال المعبود الذي كان أكثر من أن يحصر في امرأة واحدة !!

وجرت الألسن في هيلين ، وجمال هيلين ، وعشاق هيلين . . والساخطين على هيلين ممن جرحت كبرياءهم لرفضها إياهم ، ولقي زوج أمها من جراء ذلك هوْلاً شديداً ورهقاً ...

تحدثوا أن عشاق هيلين ، ومنهم أبطال هيلاس وشجعانها وذوو الصولة والجبروت فيها ، كانوا يضربون معسكراتهم حول بيت زوج أمها ، يطمع كل منهم أن يفوز هو بيد هذه الفادة ذات الفاتن ، التي أذلت الأعناق العزيزة ، ورغمت بها الأنوف الأغريقية الشماء !

وخشي تنداريوس أن تشب الحرب بينهم ، لو أن هيلين قبلت أحدهم زوجاً لها دون الآخرين . . . وأسقط في يده حين تقدم منالايوس ، ملك أسبارطة ، وسليل الآلهة أيضاً ، إلى هيلين يطلب يدها ... فلما أسرّت الفتاة إلى زوج أمها أنها ترضى ملك

---

(١) ايلين أو هيلانه أخت كليتمنسترا من أشهر الأشخاص الكلاسيكية

(٢) Muses

(٣) الخد البارز المستدير خط عما على الأنف يزيده جمالا وقد أطلق عليه بعض الكتاب (نونة) ولا ندري هل توافق الرسالة على هذه التسمية ؟

أسپارطة بملاً لها ، تضاعف فزعه ، وازدادت خشيته ، وأيقن أنه لو أنقذ من أمر ذلك الزواج شيئاً ، فان أمراء هيلاس بأسرهم يصبحون له أعداء ألدّاء ، وهو لا حول له بمعاداة أحدهم بمفرده ولا طول !!

ولجأ تنداريوس إلى الحيلة ...

لقد أقام حفلاً شائقاً دعا إليه كل من تقدموا لطلب يد هيلين ، وبالغ في إكرامهم والاحتفاء بهم ، ثم خطبهم فتحدث عن فتاته وما كان من أمر خطبتهم لها وعدم التوفيق في إنجاز شيء مما أقسموا له واختلفوا فيه ... : « أفان بدا لهيلين يا سادة أن تختار أحدكم ليكون لها زوجاً من دونكم انقلبتم على أعقابكم وثرتم بمن يقع عليه اختيار الفتاة فقتلتموه أو فضحتموه في عرضه ، وجعلتم اسم هـــذا البيت الكريم مضغةً في أفواه الهيلانيين وجيرانهم ؟؟ إنما نريد أن نتقي هذا الشر فلا يستطير ، ونتدارك الأمر ؛ فلا ندعه همجية بيننا ؛ ولن أكلفكم في سبيل ذلك شططاً . . . يمين ، يا سادة ، صادقة ، تقسمونها فتكون عهد الوفاء بيننا ، أن ترتضوا جميعاً ما ترتضيه هيلين ، وأن تكونوا يداً على من يحنث ولو كان أعزكم جانباً وأكثركم قوة . . . بل لتتفق جميعاً على أمر يكون أعم مما أشرت إليه ، أن تكون يداً على من تحدثه نفسه بالأضرار بهيلين أو بسَبْيِها ؛ فقد تحدث إليّ من عنده علم أن بعضكم ينتوي هـــذه النية السوداء . . . ينتوي أن يسرق هيلين إذا لم يكن من حظه أن يقع اختيارها عليه ليكون بعلاً لها ، وأنتم السادة النُّجب من عِلْية الأغريق وجيرة الأولمب ، أفترضون أن يحدث هذا الحدث في أمر كلكم شاركتم فيه من قبل ؟ ... »

ويجيب المدعوون في صوت واحد : « حاشا حاشا ! لنقسم جميعاً . . . » وأشرقت هيلين على الملأ ، وكادوا يفتتنون بعد إذ أقسموا ، لولا أن أرسلت الفتاة صوتها الموسيقي الرنان ... تختار ملك أسپارطة ، الملك منالايوس ، ليكون زوجها الوفي الأمين !!

وطأطأوا رؤوسهم . . . وانصرف أحدهم في إثر الآخر . . .

* * *

رسا أسطول پاريس في مرفأ ليسديمونيا[1] الأمين ، وخرج الأسپارطيون وعلى رأسهم ملكهم ومليكتهم للقاء ابن پريام العظيم ، حيث شاع أنه ينزل ضيفاً كريماً على صاحبي العرش ، فيلبث أياماً في ضيافتهما ، ثم يعود أدراجه الى طروادة مصطحباً عمته الأيم هسيونيه !

وتقدم الملك والملكة فسلما على الضيف الشاب ، وتحرك الموكب الكبير في طريق حُفَّت بالشعب الطروب ، وفُرشت بأوراق الورد ، وتأرجت في جنباتها أنواع الرياحين . وكانت فرق من الموسيقيين تعزف هنا وهناك ، فتراقص ألحانها العذبة حبات القلوب . وكم كان جميلاً رائعاً إنشاد الجنود وقد وقفوا صفوفاً صفوفاً ، كلما مر الموكب الملكي بفرقة منهم دوى هتافها حتى يبلغ عنان السماء . . . فاذا فرغوا وصلت هتافهم فرقة تالية . . . وهكذا . . .

وكان سِرب من أجمل فيان اليونان وحِسانها يحيط بالملكة الجميلة ، وقد قصَّرْن ثيابهن وأرسلن شعورهن ، فبدون فتنة الركب ، وكن سحر الموكب ، ولَفَتْن من پاريس بصره وسمعه وفؤاده !

وكان الفتى يخالسهن نظراتٍ مشغوفةً ، وكن بدورهن يبتسمن له ويتبرّجْن ، حتى التقت عيناه بعيني الملكة . . . فنسي نفسه !!

لقد خُيل له أن قلبه انخلع من مكانه الذي بين جنبيه ، ليتأرجح في مقلتيه ! أين رأى هذه الملكة من قبل يا ترى ؟ إنه لم يذهب الى الأولمپ قط ، وهل لبشري أن تطأ قدماه أرض الأولمپ فيرى مثل هذا الجمال الساحر ، والحسن الفتان ؟

الحق أن هيلين تعمدت أن تشك قلب پاريس في قوة وعنف ، حين أدركت رُسُل العيون تنتقل بسرعة بينه وبين فيانها وحسانها ! فلما التقت عيناها بعينيه غمزت قلبه الضعيف الغض بسهم مُراش من عينيها الساجيتين ، انطلق الى جوانحه في بروقٍ من بسماتها . . . ورعود !

لقد زلزل قلبه . . .

وأحس كأن قُوى خفية تجذب روحه لتمرغها تحت قدمي هيلين ! وطفق يفكر ويفكر أين رآها من قبل . . . ولكن بلا جدوى . . .

ثم بدت له ڤينوس بحيث لا يراها أحد غيره . . . وقالت له : « هِيَ . . . هي . . . كن شجاعاً ! » . . . ثم غابت ربة الحسن . . .

فذكر ماضيه القريب ، وذكر ما وعدته به ڤينوس ، وذكر

(١) عاصمة أسپارطة قديماً وقد يطلق هذا الاسم على أسپارطة نفسها

أن هيلين إن هي إلا صورة أرضية . . . سماوية . . . من دنة الحب ، وأنها مخلوقة تخلقها ، عذوبة روح ، ورقة نفس ، ودفء دم ، وسحر عيون . . .

فصمم على أن تكون له ! !

* * *

ولبث باريس في ضيافة الملك أياماً كانت تتصرم كأطياف الأحلام ! ثم حدث حادث جلل في أطراف المملكة استلزم وجود الملك نفسه ليرى رأيه فيه ، فلما كان يوم السفر ودع منالايوس زوجته الحسناء ، وأوصاها بإكرام ضيفه العظيم ، باريس ، « ابن صديق ملك طروادة ! » . فطمأنته هيلين ، وخرجت تودعه ، حتى إذا كانت عند أسوار ليسديمونيا ، حيته تحية فاترة . . . وعادت لترعى عصفورها الغريد . . . ! !

أقبلت هيلين على ضيفها غير هيابة ، وأقبل هو عليها في غير وجل . أقبلت عليه تؤانسه كما أوصاها زوجها ! وأقبل هو عليها يغازلها ، ويبحث فيها عن أجمل امرأة في العالم كما وعدته ڤينوس !

« هيَ هيَ . . . كن شجاعا ! » . وهكذا كانت تردد هذه العبارة المقتضبة في أذني باريس كلما ذكر الوفاء وشكران الجميل ؛ وكلما هم أن يبتعد بقلبه عن زوجة الملك الكريم المضياف الذي احتفى به وأكرم مثواه . . .

« هيَ هيَ . . . كن شجاعاً ! » إذن فليكن باريس شجاعا كما أمرته ڤينوس ! ليقترب من هيلين في هذه الخلوات الحلوة التي تمن عليه بها ، فتستطيل كل مرة إلى ساعات وساعات ؟

ليقترب منها ، ولتصب هي سلسبيلاً من الموسيقى في أذنيه المرهفتين لكل كلمة من كلماتها ... وليرشف هو هذه الخمر التي تتدفق من عينيها وأهدابها ... ليرشف من هذه الخمر حتى تثمل روحه ، ويسكر قلبه ، وتزيغ عيناه !

ليقترب ! ليقترب كثيراً ! ليمس جسده المشتعل ، جسدها المعطر الفينان ! إنها لا ترفض أن يكون ذراعه فوق كاهلها ! بل هي أيضا تنثر ذراعها فوق كاهله ؟ هاهما يتخاصران ! الخبيث يضغط ثديها الأيسر بشدة ! هل يبحث عما يكنه قلبها ؟ أم يفتش عن شيء مفقود في نفسها ؟ إن عينيه ما يتحولان عن عينيها ! إنه يحملق فيهما بشراهة !

قُبلة . . .

هي القبلة الأولى من غير شك ! هي الاعتراف الصريح بنضوج الحب !

وقبلة ثانية . . .

وهي القبلة المؤكدة لأختها الأولى ! هي عدم المبالاة بما عساه أن يكون ! هي أول شرط في عقد هذا الغرام الأثيم . . . ! هي الاعتداء الصارخ على عرض منالايوس . . . منالايوس العظيم ملك أسبارطة . . . وسليل الآلهة ! !

* * *

ـ « ألا يسرك يا هيلين أن نعيش سوياً أبد الدهر ! . . . »

ـ « ألا يسرني ! ما السرور إذن يا حبيبي باريس ؟ »

ـ « إذن فلنرحل في ظلام الفجر ! »

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « إلى طروادة ؟ »

* * *

وأقلع الأسطول في غبشة البكور يحمل . . .

هيلين ! !

وعفا الحب عن عمة باريس ! عفا الحب عن الأيم هسيونيه !

(لها بقية) دريني خشبة

القصيدة العصماء

في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم

حقق فيه مؤلفه (ابن عبد البر) أول من تكلم بالعربية ، وأول من وضع الكتاب العربي ، وتاريخ اجتماع الناس بعد الطوفان ، وأقسام العرب ، مع بيان أصول الشعوب العربية والأعجمية ، والكلام المشبع عن القبائل العربية

« ١٥٢ صفحة بستة قروش مصرية »

يطلب من مكتبة القدسي بباب الخلق بحارة الجباوي بدرب سعادة بالقاهرة

جنى الجنتين في تمييز نوعَي المثنيين للمحبي

هو المعجم الوحيد للمثنيات التي امتازت بها اللغة العربية على غيرها من اللغات الحية ، وقلما يخلو علم من العلوم العربية من مثنيات حقيقية أو تغليبية مما تكفل هذا الكتاب باستيعابه وتفصيله

« ١٧٢ صفحة بثمانية قروش ، يطلب من المكتبة المذكورة »

من اساطير الافريق

المحسن ...

[مهداة إلى الأستاذ دريني خشبة]

للأستاذ محمد روحي فيصل

منذ آلاف السنين ، بينما الناس في اللهو والضلال كانوا منغمسين ، سُمع من جانب السماء صوتٌ هائل كأنه الرعد القاصف قد اهتزت له أطباق الفضاء ومادت منه جوانب الأرض ؛ فاذا بميازيب النور تجف على أثر ذلك ، والظلام يغمر الدنيا كلها ؛ كأنما الشمس الحبيبة — أمُّ الحياة — قد غاضت أشعتها الزاهية وانطفأ معناها الحي ، وإذا بالأنهار والينابيع والغدران تجمد وتكف عن السعي ، وقد استحال خريرها المؤنس الجميل إلى صمت كئيب موحش كصمت القبور ، وإذا بريح صرصر عاتية تهب مجنونة على الأرض فتقتلع الأشجار بأصولها وفروعها وتهيج الغبار ، وتختطف المنازل من أماكنها ، وإذا بالضواري المروّعة تنفر من مكامنها هائجة غاضبة تزأر ..!!

وريع الناس وجبنوا فما يدرون ماذا دهاهم من الخطوب ، ثم أقبل بعضهم إلى بعض يتساءلون : أي ذنب اقترفناه ، وأية فريضة لم نقم بها حتى صب علينا الآله العظيم غضبه وويله ؟

وكانت قافلة الحياة يومئذ من الشر والضلال في منزلة لم يعرفها التاريخ في أدنى عهوده ، تسير على غير هدى وإلى غير غاية في معمعة من الفساد وطريق من الرذيلة ، وكان رجال الفن أدق الناس شعوراً وأرهفهم إحساساً . فقال الشاعر : « إني نظمت في مديح الآله قصيدة رائعة منتزعة من النفس ؛ لا صادرة عن اللسان ، ما أحسب أن أحداً من الشعراء سيقفي إلى مثلها على كثرة المادحين ، أودعت فيه قلبي ودمي ، وحرقت لها مخي وكبدي ، ثم صغتها في لفظ عذب جميل ؛ فأنا أسبح بحمده ما نطقت ، وأنشر روحه أني حللت ، ولقد أجثو في محرابه خاشعاً متصدعاً ، أتلو آي التمجيد والاجلال ، فكيف يغضب مني وينقم عليّ ؟ »

وقال الموسيقي : « وأنا أيضاً لحّنت أنشودة قوية تحكي هديل الحمام وتغريد العنادل ، ورجّعتها ترجيع عاشق محزون ، ثم قدمتها هدية حقيرة للآله الجبار ، فلماذا غضب ..؟ »

وقال النحات : « أما أنا فقد صنعت له تمثالاً عظيماً يجمع إلى معاني الجبروت تهاويل الجمال ، وإلى قوة البنية رشاقة القسمات تُرى أيغضب الآله مني وأنا مجسّده ؟[1] »

وانتفض المصور وقال : « أأنا مغضب الآله إذن ؟ لقد أخذت زرقة السماء وخضرة الأوراق واحمرار الشفق ، ونزعت من الورود ألوانها ، والتمست من ذلك كله صورة لآلهنا الكبير فما زلت أعمل فيها وأنسقها حتى برزت حيـــة ناطقة في إطار واضح مشرق ... »

ويضطرب الناس ، وتطغى عليهم حيرة جاهلة عمياء ؛ تتبينها في الوجوه الواجمة ، والنظرات الحائرة ، والخطى الثقيلة ؛ ويتداولون الأمر همساً ، ويلتمسون الخلاص من الخطب ، ويجمعون رأيهم على الذهاب إلى وادي عبقر ، موطن الوحي والالهام . فراحوا جميعاً إلى حيث يلاقون إلههم الناضب ، يتقدمهم الشاعر ساهم الوجه ، تائه البصر ، وحمل المصور لوحته وريشته العذراء ، وتأبط الموسيقي قيثارته المشدودة الأوتار ، وجمع النحات أزميله ومنقاشه وحجره ...

وفي لمحة خاطفة ، طلمت الشمس ، وغردت الطيور ، واستأنفت الأنهار سعيها ، ثم لامست الوادي غيمة كبيرة بيضاء هبط منها الآله الجبار !!

وخر الناس من الخشية سُجّداً يلتمسون البركة والضراعة والغفران ! وكما يسمع الحالم في النوم سمعوا صوت إلههم يقول :

لقد بعثت فيكم رسولاً كريماً ينشر الرحمة ويعلمكم العطف والتقدير فتجاهلتموه !

بعثته والاخلاص ملء برديه وفيض إهابه فلم تقدروه !

هو خادمكم الأمين يبذل عرق جبينه لاصلاح مجتمعكم الواهي وينفق المال الذي بين يديه دون أجر غير أجري ؛ لأنه يعطيكم أكثر مما يأخذ منكم ، ويبني المستشفيات والملاجئ ، ويقيم دوراً للعلم فنسيتموه أو تناسيتموه !

وحق عظمتي ، لولا رحمتي التي وسعت كل شيء لجعلت الأرض فوقكم قاعاً صفصفاً ...

عند ذلك صاح الساجدون كلهم :

ما اسم هذا الرسول الكريم ؟

فأجاب الآله الجبار : المحسن

حمص

محمد روحي فيصل

(١) التجسيد : تمثيل الرب بطبيعته وهيئته في زي انسان ، والتجسيد مقتبس من اليونانية Anthropamarphisme

الهـــــدية

للأستاذ بشير الشريقي

حدثني صديق لي وهو في مقتبل عمره ، وأول عهده بالوظيفة ، قال :

في صباح أحد الأيام ، وأنا متهيء للخروج إلى عملي ، إذا بباب غرفتي يطرق ، وإذا بالطارق فتى جميل المحيا ، يقظ اللامح ، يحمل على يديه سفطاً مستطيل الشكل ، كبير الحجم ، فما وقع نظري على الفتى والسفط بين يديه حتى تولاني الانقباض ، لأنني عرفته من هو ؟ وأين يشتغل

تمتم الفتى : لقد عاد عمي الشيخ من دمشق مساء أمس وهو يهديك تحياته ، وقد أرسلني بهذا السفط هديته من دمشق اليك

ولكن عقلي كان قد اهتدى إلى أني موظف ، وأن لصاحب هذه الهدية مصالح كثيرة عندي يهمه قضاؤها

فبادرت الفتى بتؤدة : ما هذا ؟ ليس من الضروري . . . . له مني الشكر . . . أعد السفط اليه . . . ليس من الضروري . . . ولكنه قاطعني بأدب : لقد بعث به الشيخ اليك .. وهو هديته من دمشق . . . وسيغضب عليّ إن رجعت به

قلت بلهجة الآمر : أرجعه . . . سوف لا آخذه

عاد الفتى بالسفط وهو لا يصدق أني رفضت قبوله ؛ وعدت فأغلقت عليّ باب غرفتي أفكر في الذي صنعت : لولا أنه صاحب حاجة عندي لما خطرت هذه الهدية له على بال ولما فكر فيّ لحظة ، إذ لا صداقة بيني وبينه ، وأنا لا أراه إلا في الدائرة حين يريدني في أمر رسمي ، أو في الطريق فنتبادل التحية من بعيد ، وفوق ذلك فهو من التجار الذين يحاسبون على المحتوت والقطمير ، والذين يمطون القرش ليستردوه قرشين ؛ وهكذا كان الظاهر محاطاً كله بالريب فلم يدخل في نفسي أن هدية الشيخ منزهة عن الغرض

وبينا أنا على هذه الحال ، إذ أرى الشيخ من نافذة غرفتي قادماً إليّ ، فأسرعت وفتحت له الباب :

أهلاً وسهلاً بحضرة الشيخ ، الحمد لله على سلامتك ، تفضل . . . جلس فاذا به قد تجاوز الخامسة والخمسين ، ولكنه لا يزال محتفظاً بقوته ونشاطه ، قد تدلت من ذقنه لحية كبيرة بيضاء ، يرتدي سروالاً وجبة ، نظيف البزة ، وسيم الطلعة ، حسن القيام على نفسه

— ماذا فعلت يا ابن أخي ، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية

قلت : ويرد الصدقة

قال : ويرد الصدقة ؟! ولكن قسما بهذه اللحية — وقبض على لحيته — إن الهدية قد صنعت على اسمك وحملتها من دمشق اليك

قلت : أشكرك . . . أشكرك . . .

قال : ولا أزيدك علماً أنه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه : « من أهدى اليه شيء ورده فكأنما ردّه على الله »

قلت : صدق رسول الله الكريم .. أنا لا أشك في حسن نية الشيخ ، ولكن القانون يا عم . . . هذا القانون المكلفون نحن قبل غيرنا بحفظه واحترامه ينهانا عن أخذ مثل هذه الهدية ، فهي في عرفه رشوة والعياذ بالله ، يستحق معطيها وآخذها شديد العقاب — إليك المواد — ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٦ من قانون العقوبات العثماني — وقرأت له نصوصها — إنه لأمر خطير

وقلت له :

ولكي تثق بواسع علم المشرّع الذي سن لنا قانون العقوبات ويمتد نظره أروى لك هذا الحديث الشريف المثبت في الصحيحين عن أبي حميد الساعدي قال : استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي إليّ فقال النبي : ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هذا لكم وهذا أهدي إليّ فهل قعد في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا ! »

وهنا صمت الشيخ ولكن لسان حاله كان يقول :

— لقد عرفت كثيرين غيرك من الموظفين كباراً وصغاراً فلم يحدثني واحد منهم عن مواد قانون العقوبات ولا عن حراسة القانون ، لم يذكر لي واحد منهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم مع عامله على الصدقة بل كان أمري معهم ولا يزال على العكس تماما فأنا مكلف عند كل خطوة وعند كل حاجة أن أقدم الهدايا وألبي الطلبات . . . .

* * *

وإلى هنا انتهى حديث الصديق فوجدته جديراً بالتدوين ؛ فدونته في الحال ؛ وها هو كما سمعته بلا زيادة ولا نقصان ؟

(شرق الأردن) بشير الشريقي